قوميات وأدبيات واجتماعيات ووجدانيات وشخصيات ولمعات ، لأدلل على اللين العقلي ، والعجز الذهني ، وهجس الخاطر ، والمياعة السمجة ، والوطنية المريضة ، والحس المتحجر ، والشعور الميت ، أود ذلك ولكن ليس من شأن الناقد أن يجلد بالمؤلف وجه الارض بل عليه أن ينصح القراء — لوجه الادب — بأن كتاب « ما قل ودل » يصلح أن يلقى في سلة المهملات لا أن يكون في مكاتب القارئات والقراء ، وأخيراً كنت أود أن يبحث النقاد معي عن شخصية المؤلف وعن طابعه وأسلوبه لأني حاولت عبثا العثور عليها في كتابه الميت

عسى أن يتدبر الصاوي الحقيقة إذا كان من طلاب الحياة الادبية وليت انطون بك الجميل يقدر الصراحة ويهمل الغمز الخاطف

طابع أدباء الشيوخ

محمد حسين هيكل — عبد الله عنان — صفي عبود

ان القصد الذي قدمناه في كتابة هذه الفصول ، والغاية التي صبونا إليها هي الاستعراض والمقارنة والموازنه ، بها نستدل على طابع أدباء الجيل الجديد ممن يحملون رسالة الادب ، ومنها

نتعرف إلى المسؤولية الادبية التي نهض بها أبناء الجيل الآخر ممن يتسمون بأدباء الشيوخ، وقد انجلى الامر بعد تبسطنا في دراسة أدباء الشباب وتحليل مقدمات كتبهم وعرض نماذج منها على أن النضج والاتزان والتوطيد — وهي أولى خصائص الاديب — لم تبد طلائعها ولم تظهر بواكيرها الا عند أفراد قلائل منهم وان صفات الافراط في المغالاة ، والاغراق في المديح والاطناب في الوصف والتضليل في التقدير ، واصطناع المقاييس غير المضبوطة وتعمد الهينمة والتغرير وانتفاخ الاوداج بالغرور إنما هي الحلل المهلهلة التي يتسربلونها والطيلسانات البالية التي يتيهون عجبا بلبسها والقصبات المرضوضة التي يحسبونها صوالجة في أيديهم يمشون بها على رعية الادب !

هذه حقائق صارحنا أدباء الشباب بها فرضي عنها من رضي من العقلاء ، وغضب منها ونقم علينا من غضب من الحمقى والجهلاء وحسب الاديب مرضاة لضميره ان يتجه ناحية الحق والنزاهة والاخلاص للادب وليس عليه ان يرضي جميع الادباء — وان كانوا أصدقاء — على حساب الادب

* * *

ننتقل الآن الى الطائفة الثانية التي تواضع الشباب على تسمية رجالها بالشيوخ بادئين بالدكتور محمد حسين هيكل

بك وهو كاتب مقدمات كتب « قضايا التاريخ الكبرى، وديوان التحقيق ، وبرسوم العريان »

لم نختر هذه المقدمات الثلاث اختياراً ولم نتعمل الانتخاب من كثير ما كتب من مقدمات ودراسات أدبية وبيوغرافية انما هي الصدفة الموفقة ساقتها الينا عفواً لتهدينا الى الناحية الواحدة من مكانة الاديب الأصيل الذي ينظر الى متون الاشياء واصلابها ولا يتأثر بهوامشها وإطاراتها ولا ينساق مع تيارات الشباب ونزوات التهافت على الشهرة والتكالب على ذيوع الصيت ، بل يتجرد للادب نفسه كما يتجرد الصوفي من ذاتيته والناسك من دنياه للاندماج في الروح الاعلى والجوهر الاسمى

كتب الدكتور هيكل مقدمتين الواحدة لكتاب « قضايا التاريخ الكبرى » والثانية لكتاب « أشهر المحاكمات والجرائم » لجامعهما الاستاذ محمد عبد الله عنان المحامي تكاد أن تكونا مقدمة واحدة تناول فيها « الجريمة » التي هي أقدم شيء في الوجود والأساس الذي قامت عليه الحياة من بدء ظهورها فدلل على انها المظهر الادنى لقانون تنازع البقاء وبقاء الاصلح مستشهداً بالرجل الذي يفتك بجاره ويسلبه متاعه أو زوجه مندفعاً الى ذلك كما يندفع أي حيوان ضار يريد أن يدفع عن نفسه غائلة الجوع أو يرضي فيها سليقه بقاء النوع وان أنواعا منظمة من

الفتك والاعتداء لا تزال نظاماً لحياة الانسان وان تاريخ الانسانية في علاقة الناس بعضهم ببعض افراداً أو امما انما هو تاريخ «الجريمة» وان جرائم القتل والسلب الفردي تطورت فصارت قتلا وسلباً منظما تشترك فيها الجماعات والامم التي تواضعت على تسميتها « الحرب » وأسدلت عليها دثار القانون تمويها وتضليلا وان الامم المحرومة مجد الجريمة انما هي امم لا تاريخ لها

اليست الجريمة في ذاتها من دوافع حيوانية الانسان الموروثة وان علوم الانسان وتهذبه وتمدنه وثقافته العصرية انما هي صقل وشحذ لسلاح الجريمة التي تمكن طبقة حاكمة تضطرب فيها شهواتها المنحطة المدنسة بارجاس التعصب والطغيان والجشع والسلطان والمال، من طبقات محكومة مغلقة الاذهان مغمضة العيون مطعمة بميكروب القناعة والاكتفاء ، ملقحة «بأفيون» الاستسلام للاقدار والخضوع الحيواني للامر الواقع ؟ اليست الجريمة فخا ينصبه الطاغية الشرير للوديع المسالم ؟ اليست الجريمة مرآة تنعكس عليها صور نفوس الاشرار والوادعين يراها كلا الفريقين فيمعن الاولون في حيوانيتهم . ولابد أن يأتي يوم ينتبه فيه الآخرون الى ضرورة العودة الى الشراسة الحيوانية وضراوتها لتتوازن ، على مر الاجيال وكر العصور وتطور الانواع ، قوة الشر الاصيلة عند الطغاة بقوة الشر المكتسبة من التفاعل عند المسالمين ، ألا يعمل

المصلحون على اجتثاث اصول الشر في نفس الانسان وانتزاع انبواعث الاجتماعية التي تهيج طبائع الجريمة المتأصلة فيه وليغرسوا بدلا منها غرسات المحبة الانسانية والاشتراك في الخير العام ؟

لقد شغلت « الجناية » أذهان الناس جميعاً واستهوت لبهم وحفزت فضولهم فصار لزاماً على الرجل اللبيب ان يدون أخبارها ويورد حوادثها فكان منه المؤرخ الذي تطور مع الزمن ومع ملابسات الجرائم الكبرى فصار يسبغ عليها انواعاً من المفاجآت تحفز الفضول وتذكي الولع في تتبع نوادرها واخبارها « وتجيش في فؤاد كل انسان يود لو يحققها له القدر » وصار يعنى تارة بدرس طبائع عظماء المجرمين وبحث موضوعات جرائمهم التي كانت تتحكم في توجيه نظام الدولة وجهة خاصة وتارة في انهاض علم النفس الذي له اكبر الاثر في التقدم الانساني خصوصاً في العلم الجنائي والتشريع الجنائي ودرس ماانطبعت عليه فطرة المجرمين بطابع الجريمة منذ ولادتهم ومنذ تلوثوا بجراثيم الجريمة تحت تأثير البيئة

نعم لقد تم كل ذلك « المؤرخ » الذي لم يعد مؤرخا بالمعنى الدال على التاريخ بل أصبح مدونا وفيلسوفا وعالما وأديباً وفناناً وشاعراً واجتماعيا واقتصادياً وقصصياً ونقاداً ومحللا يمدح أو يقدح، يزكي أو يجرّح ، يحلل أو يحرم، يشيد أو يحط من أقدار

الاقوياء او الضعفاء،الجبارين أوالوادعين ،الخادمين او المخدومين وفقا لرغباته وميوله وتبعا لنزغات الشهوة واتجاهات النفس وكذلك صار منه من « يعتبر الانسان الظافر في جهاده الحيواني صاحب حق ثم يزيد حقه بعد ظفره على حق الحيوان ان يجد من الحق ومنطقه ومن الذكاء وحيله ما يدعم حق هذا الظفر بالشعر البديع تتغنى به الاجيال المتعاقبة وبالشرائع الثابتة بزعم واضعوها انها اقيمت على أساس من الحق ومن العدل المجرد من كل هوى وصار منهم من يدعو علانية الى بتر الانسان الضعيف كأنه عضو مشلول في جسم الهيئة الاجتماعية بدلا من مداواته وتطبيبه

على هذا النمط البارع من التعمق في الدرس والتحليل والاستقراء والتخريج يمضي القاريء في تلاوة صور من صور استعلاء الجانب الحيواني المفترس في الانسان على جانب البصيرة المضيء منه في المقدمة اللامعة التي كتبها الدكتور هيكل خصوصاً ما يتعلق باستعلاء التعصب الديني على التسامح عند رجال الدين الذين سخروا الدين والعقيدة والكتب المقدسة لأغراضهم وباستعلاء الجانب المستبد عند الملوك الذين لا يرضون الى جانبهم من ينازعهم ملكهم ولو كان الى جانبهم اخوة لهم أو أبناء وكيف يسخرون التشريع والقانون والقضاء ليجعلوا من اسمها وسيلة للقضاء على من يخافونه ، وهكذا يمضي في التدليل ويمعن في

الاستشهاد على روح « الجريمة » وعلى الجرائم الكبرى التي وقعت في العصور الخوالي وقد يقع مثلها في الامم التي لم تتمتع بعد بنعمة الحرية ولم تقم باعباء المسؤوليات الاجتماعية وينهض الحجة على « أن الثورات في الامم — وهي إحدى علامات اليقظة الروحية — كالحريق في بيت كبير، فاخر الرياش، ثمين الجوهر والنفائس ، ما تكاد النار تتسع في هذا البيت دائرتها حتى ترى متطوعين من كل جانب يفدون اليه بدعوى اطفائها ثم لا يحول ذلك دون الواحد منهم واستلاب ما تصل اليه يده من كنوز البيت و نفائسه » ويأتي بالادلة مقتطفة من كتاب الاستاذ عنان يدعم بها الدعوة الى تنفير النفس الانسانية من فظائع الجرائم الوحشية التي ما برح الانسان يجترمها بأساليب عدة غير ناس ما على كاتب المقدمة من واجب النقد فيقول في المؤلف « واذا كانت سرعة الانتاج قد جنت في بعض الاحايين على أسلوب التحرير أو نظام الفكرة فذلك لم يكن قط في الكتب الاساسية التي اقتطع لها من وقته ما يستحق لتكون لابسة خير ثوب يود أن يخلعه عليها من الكمال » أو قوله « وان كان لناقد أن يؤاخذه بان اكثر ما تعرض له في كتابيه قد سبق لغيره من كتاب الغرب أن تعرض له ألخ .. » كذلك لم ينس التقريظ بقوله « على أن الاستاذ عنان كان في آرائه التي أبداها في القضايا والاحكام

متئداً كل التؤدة مراعياً هذه الظروف الدقيقة التي تحيط بالتاريخ، والمؤرخ محتاطا لايحازب ملكا أو خصما للملك مدققا في بيان ما للملك وما لخصمه وما على الملك وما على خصمه وهذه الدقة التي راعاها الاستاذ عنان في آرائه هي بعينها الدقة التي توخاها في سرد تاريخ «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى»

فانت ترى من هذه الخلاصة الوافرة لمقدمة الدكتور هيكل ما يدلك على انه عنى بموضوع الكتاب اضعاف ماعنى بشخص المؤلف. لا لأن شخصيته وطابعه غير جذابين وغير قمينين بالعناية بل لان الروح الذي يستفيض في موضوع الكتاب هو جزء كبير من طابع وشخصية مؤلفه . وان كتاب المقدمات لا يعالجون شخصية المؤلف او طابعه إلا اذا كان روح الكتاب هزيلا وموضوعه تافها واليك الدليل

كتب الدكتور هيكل مقدمة لكتاب «برسوم العريان» استهلها بقوله «الصحفي العجوز في غير حاجة الى تقديم . وحسبه انه صحفي وانه عجوز ليعرفه كل قاريء، فاذا كانت سنه وكانت ظروف حياته قد طوعتا له ان يعاون الشيخ يوسف الخازن في جريدة الاخبار القديمة، جريدة الاخبار السابقة على «اخبار» امين الرافعي والسابقة على الحرب، وكان قد عمل قبل ذلك وبعده في مجلات وصحف مختلفه انتهت به الى «هامش الاهرام» فليس من حقي

ولم تصادفني هذه الظروف . واكاد احسب بعضها من قديم التاريخ ان ازعم القدرة على تقديم « توفيق حبيب » الى قرائه باكثر مما قدمته الصحف التي عمل فيها والسنون التي تقلبت عليه . وليس من حقي ان ازعم القدرة على تقديمه وميدانه في الحياة الادبية يختلف — وبخاصة في صحف هذا الكتاب الذي بين يدي القاريء — عن كل ما عالجت انا من شؤون وحاولت ان اجعله في الحياة الادبية ميداني الخ الخ ... »

أرأيت كيف اجتذب موضوع كتابي « قضايا التاريخ الكبرى وديوان التحقيق » روح الاستاذ الدكتور هيكل فالهمه كتابة ثلاثاً وعشرين صفحة من القطع الكبير في الدرس النفيس والتحليل الدقيق في فلسفة الجريمة . وكيف قعد به كتاب « رسوم العريان » عن كتابة سطور قليلة فى صلب الموضوع فراح يتحايل على التخلص منه الى كتابة كلمات في شخصية المؤلف لا تعلي من قدره أو تحط في قيمته بمقدار « بوصة » واحدة بل تبقية حيث عرفه القراء قبل عشرات طوال من السنين لم يتقدم خطوة الى الامام ولم يرتفع قيراطا الى العلو ! ! هل سمعت من الدكتور هيكل اسرافا في القول أو افراطا في الوصف أو مغالاة في التقدير أو تقريراً في تحديد المواهب او اضفاء نعوت والقاب وصفات على المؤلفين عبدالله عنان وتوفيق حبيب ؟

لا ، لاشيء من ذلك البتة . وحاشا لأديب ناضج متزن ان

يشط الا اذا دعته ظروف خاصة الي ركوب الشطط فان فعل فانما
الذي يفعل هي الناحية المريضة في عقد نفسه

الدكتور طه حسين — الدكتور أحمد فريد رفاعي

لست أدري لماذا أشعر وأنا أحاول كتابة هذه السطور بالحاجة الى تناول شخصية الدكتور طه حسين بالدرس والتحليل واستجلاء بعض نواحيها مع أن غرضي لا يتجاوز حدود التعرض لطابعه الشخصي ، كاديب من ادباء الشيوخ عن طريقة كتابة المقدمات ؟

حقًا لا أعرف سببًا لهذا الثل الميل الملح في حين أن لكبار الأدباء فضلا عن كبار الاساتذة هيبة وسطوة ترهبان المرء وتضلانه كما تضل بهرة الشمس الابرص وتفقده هداه ، فما بال نفسي تدفعني الى التحكك بأستاذ طبقت شهرته الاقطار التي يتكلم اهلها العربية وذاع صيته في بعض الأوساط الغربية ، ما بالها لا تحسب حسابا لقوة « الاستاذ » العظيمة وللقوات التي حوله من الانصار، والمحاسيب ؟

مالي أحاول الطواف حوله كما يطوف المجوسي حول النار وهل هنالك صلة بين الاندفاع الذاتي وملكة الدكتور طه

النفسية تدفعني الى الكلام عنه كما تدفع به دائما إلى الكلام عن نفسه في كل المناسبات والظروف وفي مناسبات كتابة مقدمات الكتب أيضاً

هب اني طاوعت هوى النفس ومضيت أسايرها في الشهوة التي قد لا احمدها عليها ، أفلا أكون مأخوذاً على رغم مني كالمستهوى ومسوقاً الى الكلام عن الدكتور بدافع وبتأثير من نفسيته ؟

أمر التجاوب النفسي معلوم عند عارفي علم النفس ، ألا تراني أحاول الكلام عن شخصيته بفعل من هذا التجاوب المعدي والذي لا أجد لذاتي محيصاً عنه أو مهربا منه ؟

من طبيعة الدكتور طه الدوران حول نفسه كمولوي يتدرب على الاذكار لوحده منفرداً عن جماعته الذين يدورون ويلفون دورات ولفات موزونة وموقعة على أنغام الناي والكمنجة، فما لي أنا أدور معه ولست بمولوي ولا من مدمني الاذكار ؟ هل جاذبيته القوية تضطرني الى اللف معه والدوران حوله وأنا في غنى عن ذلك مادمت أجابه الحقائق ولا أخشاها ولا أرتاع منها

يخيل الي أني لست المرغم الوحيد على اللف معه ، ولا المسكين الفرد بين قرائه المحكوم عليه بالدوران حوله لانه لا بد لمن يقترب منه أن يلف ويدور حتى يأخذه الدوار فيقع مغشياً

عليه ، أما الدكتور طه فيبقى يدور ويكتب ويتحدث ويلف ويحاضر ويكتب مقدمات الكتب وهو يلف ويدور أيضاً ! !

اسمع الآن وانظر كيف يكون ذلك ؟ كتب الدكتور طه مقدمة لكتاب «الشخصيات البارزة التاريخية» لمؤلفه الدكتور احمد فريد رفاعي استهلها بالدورة التالية

«أيهما يغري بصاحبه ويسعى اليه ويلح عليه حتى يضطره الى اطالة الوقوف عنده وانعام العناية به والتفكير فيه أهو الموضوع الادبي ام هو الاديب ؟ وبعبارة واضحة جلية قريبة الى التعيين والتخصيص ، ايهما سعى الى صاحبه واغرى به أهو موضوع هذا الكتاب قد سعى الى المؤلف ومازال يلم به اذا اصبح ويطرقه اذا امسى حتى اضطره الى ان ينظر فيه ثم يدرسه ثم يتمثله ثم يتخذه موضوعا لهذا الكتاب ام هو المؤلف قد بحث وفتش والتمس وتعب واخذ يسأل الكتب والاسفار ويستثير الحوادث والخطوب عن موضوع ينفق في تصوره ثم تصويره فضل ما عنده من قوة ونشاط ووقت وفراغ بال . الق على المؤلف نفسه هذا السؤال فلن تظفر منه بجواب لانه لا يعرف اطرق الموضوع أم طرقه الموضوع (كذا) واكبر الظن ان كلا من الكاتب والكتاب قد سعى الى صاحبه وابتغى اليه الوسيلة والتمس اليه الاسباب (كذا)

«اما صديقنا فريد فليس من شك في أنه قد سعى الى موضوعه

سعيا وعدا اليه عدوا (كذا) ومازال هو يسعى الى موضوعه وموضوعه يسعى اليه حتى التقيا فتعارفا !! ثم ائتلفا ثم امتزجا ثم نشأ من امتزاجهما هذا السفر الصغير الممتع الذي يسرني ان اقدمه الى القراء »

هوذا نموذج واحد من لف الدكتور طه حول موضوعه واسمع الآن وانظر النموذج الثاني من دورانه حول المؤلف. قال « وصديقنا فريد كما عرفته اكثر من عشرين عاما طلعة كثير البحث والتنقيب شغوف بالقراءة » وراح يسرد اخبار صديقه وتحايله على اكتساب الوقت ليقرأ اسماء وانواع الكتب التي كان يفضل قراءتها عن سواها من المؤلفات ومن تعلقه بسير عظماء الرجال من غربيين وشرقيين والى الفرجة التي باعدت بين الدكتورين والى عودة الدكتور طه من اوربا ولقياه صديقه الدكتور فريد حيث تركه مشغوفا بقراءة ما يكتب عن حياة العظماء فيقول فيه « يقرأ ذلك ويتحدث به ويطيل الحديث حتى يخيل إلى الذين يلقونه ويسمعون له إما قاص يتنقل بالقصص أو مؤرخ يتنقل بالتواريخ وكان الطريف من أمره أنه لم يكن يخلص للقصص وللتاريخ وإنما كان يبدأ بالحديث في قصة او نبأ من الأنباء ثم لا يلبث أن يستطرد منه إلى ما يقع في حياتنا من الاحداث والخطوب فيقارن ويوازن ويلتمس أوجه ما بين ما يروي وما

يرى ثم يعود إلى قصته أو نبأه ثم ينتقل منها إلى أخرى أو نبأ آخر ثم يعود إلى ما نحن فيه من حياة ثم يتركك وقد عناك وأضناك وأثار في رأسك شيئاً يشبه الدوار لكثرة مادار بك في سرعة مدهشة بين الماضي والحاضر والمستقبل ولكثرة ما روى لك من الاحداث واستخرج لك من العبر واستنبط لك من فنون التشبيه بين ما كان وما هو كائن وما لا بد أن يكون »

أنت ترى في هذا الكلام وصفا صادقا صحيحاً لطابع الدكتور فريد رفاعي وتحليلا موفقا لشخصيته وتجد في ذات الوقت نبواً صارخا وعوجا لا يستقيم مع ما استهله من الكلام فيه ووصفه إياه أنه يسعى إلى موضوعه سعيا ويعدو إليه عدواً ويمتزج به امتزاجا فأين هذا الامتزاج امتزاج الموضوع بالكاتب والكاتب بالموضوع من هذه البعثرة والتنافر والتمزيق التي يقررها الدكتور طه ؟ ألست تجد في ذلك لفًّا وزوغاناً عن قول الحق غير خليقين بأستاذ كالدكتور طه مفروض فيه تقرير الاحكام الادبية كأنها نظريات علمية ؟ نعم أن ذلك ليس بمفروض فيه فحسب بل هو واجب عليه وجوبا لا انحراف فيه البتة ، لا لأن طلاب الجامعة يتأثرون بأحكام عميدهم ، بل لأن طائفة كبيرة من القراء في مصر وفي الأقطار العربية تتأثر بأقواله حتى ما كان منها لغواً « كلفو صيف » وتعتد بها على اعتبار أنها

صادرة من أستاذ يحترم نفسه ويزن أقواله ويقف منافحا عنها منحيا كل لبس أو شبهة أو شك يقترب منها لتظل خالصة من العيب منزهة عن الغرض لائقة بكرامة عميد كلية الآداب في الجامعة المصرية .

ومن غريب امر الدكتور طه وزوغانه وتأرجحه بين الباطل والحق قوله في الدكتور فريد مخاطبا القاريء «ولكنك تخطيء ان التمست عند صاحبنا بحثا موضوعيا عن هؤلاء الاشخاص الذين يكتب فيهم او يتحدث عنهم فصاحبنا مغرق أشد الاغراق فيما يسمونه الانشاء الذاتي » فاين هذا الكلام من قوله « فأنت ترى الشخصية البارزة ولكنك ترى فيها فريدا وانت ترى فريدا ولكنك ترى فيه شخصية بارزة في هذه الشخصيات» فهل يفهم من كلام الدكتور طه ان لا فارق البته بين الدكتور احمد فريد رفاعي وبين الشخصيات التي درسها وحللها وكتب كتابه عنها؟ أو ان الامتزاج مختلط بين شخصية الدكتور رفاعي وعمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق وادوار بوك وابراهام لنكولن وهنري فورد وبوكر ووشنجتون وبسمارك وان لا فرق بينهما البته؟ والله لا أدري معنى لهذا التلاعب الذي يأباه ويتحاشاه كاتب عادي صناعته ملء اعمدة في جريدة سيارة لا تحترم ذاتها ولا تقيم وزنا لشعور قرائها ولا أفهم هذا التخليط ولا كيف قاله الدكتور العميد

ولا اذا كان يتعمد الهزء بالقراء أو العبث والمجون أو امتحان امزجة الناس ! !

في مقدمة كتاب «الشخصيات البارزة» ضروب شتى من امثال هذه المتناقضات والمفاجآت والمفارقات الادبية التي تفضحها شخصية الدكتور طه العجيبة نضحا عجيبا ولعل أغرب المفارقات بل النكات المستملحة التي جعلها الدكتور طه «نكتة» الفصل دعوته الحارة الى القراء «واهابته بهم الى اقتناء الكتاب» وقوله لهم «واني لواثق أشد الوثوق بان هذا الكتاب سيكون بين الكتب القليلة جدا التي ظهرت في هذه الايام فظفرت برضى القراء واعجاب الشباب واثق بان الشباب سيرون فيه انفسهم وميولهم واهواءهم وآمالهم ومثلهم العليا جلية اشد الجلاء واضحة أنصع الوضوح واذا كان لي ان اتمنى لصديقنا ولشبابنا شيئا فهو ان يمضي الشباب في ان يقرأوا أمثال هذا الكتاب»

حقا انها لدعوة حارة تبدو لنا لأول وهلة كأنها صادقة ! ! وليس من شأننا أن نقول أن داعيها يضمر كل الخير لمؤلف كتاب «الشخصيات البارزة» ولكنه لا يسعنا إلا أن نقول متى رفع الغشاء الشفاف وزال التمويه المفضوح عنها نجد أنها دعوة معكوسة موجهة ضد المؤلف الذي «يتركك وقد عاناك وأضناك وأثار في رأسك شيئا يشبه الدوار لكثرة ما دار بك في سرعة

مدهشة بين الماضي والحاضر والمستقبل » وانها لجملة حق أريد بها الباطل إنما جبن الدكتور عن ادحاض الباطل بسلاح الحق فعمد إلى اللف والدوران

***

عالجت الناحية الواحدة في الدكتور طه ودللت على ملكة اللف والدوران المتأصلة في نفسه ، وأحاول الآن استعراض ناحية مريضة فيه ، مؤملا أن لا يسوقني البحث إلى استنباط أمراض أخرى ، وأن لا يتكشف هو لي عن علل دفينة في نفسه ، لأنه يخيل إلي أن وفرة النواحي وتشعبها عند بعض كبار الأدباء ، و المكانة التي لهم عند الناس ، والعنجهية التي لا بد تلازمهم من جراء هذه الحظوة العامة ، وأن سكوت النقاد عن نقدهم وإظهار الخلل والنقص في ما يكتبون ويؤلفون ، تجعلهم — على غير وعي منهم — يتعهدون ضعفهم بالغذاء والتنمية بدلا من معالجته ومداواته ، وهكذا يصبح الضعف ملازما وملابسا أعمالهم الأدبية كلها ، وقل ما نجد فيهم ناحية سليمة صحيحة ، والدكتور طه واحد من كبار هؤلاء المرضى ، محكوم عليه بسبب « حالته الخاصة » أن يبقى مريضا مدى العمر ، وأن يقعد ويعجز عن تطبيب نفسه ، لعلمه بأن علوم الطب ألقت أسلحتها

صاغرة مستسلمة الى احكام الطبيعة في خلقها علل نفسية لا تبرأ ولا يرجى لها شفاء!!

كان في استطاعة الاستاذ الدكتور طه الذكي اللبيب أن يلطف من حدة مرضه ويسكن نوباته بالانطواء على النفس، ولكن اعوانه ووسطه وانصاره — وهؤلاء يلونون شخصيته وطابعه بلون خاص — يلزمونه بجعل عقد مرضه المعروفة «بمركب النقص» دائمة الاهتياج كثيرة الانفعالات، عديدة الحوافز الى التحويم والتحليق والاحاطة والشمول، ملحة الشهوة في البروز بتاج السلطان الجبار، وعصا القائد الظافر، مكتنفة بطائفة من المريدين والانصار والاعوان والتلاميذ، وتراها ايضا بفعل النكسة — متخاذلة القوى واهنة العزيمة، تفزع من الحقيقة فتفر منها، وتضطرب من المجادل في الحق فتهرب منه، وهكذا تراها، إما في الطرف الاقصى تتعسف وتتعنجه وتتجبر، وإما في الطرف الأدنى تخمد وتستكين، لاحظنا الحالتين عند الدكتور طه، مرة في تشككه وقد ابى الصمود الى النهاية على إقرار التشكك كما فعل ويفعل العلماء الراسخون، ومرة في كتابة مقدمات الكتب ونقد مؤلفات الادباء المعاصرين، وقد أبى إلا الامعان في التغطرس والايغال في المغالاة ليرضي نفسه، لا ليستجيب الحق والنزاهة والعدل فيما يقول

كتب الدكتور طه مقدمة لقصة « فاوست » التي نقلها الى العربية الدكتور محمد عوض محمد قسمها الى ثلاثة اقسام تكلم في القسم الاول عن الدكتور عوض وكيف عرفه « هادىء النفس ، صافي الضمير ، كريم الخلق ، عذب الحديث » « وكان يلذ لي ان اسمع له فأفهم ، كما كان يعجبني ان اتحدث اليه فيفهم مني ..... وكنت اقدر ان بينه وبيني صلة خاصة تقرب المسافة بيننا او تمحوها ، ولم تكن هذه الصلة بالطبع تنشأ عن المادة التي اختص بها وبرع فيها ، فقد كان يقال انه وصاف للارض ماهر في الوصف ، مقوم للبلدان بارع في التقويم.... فلم يكن غريبا ان ابحث عن هذه الصلة التي كانت تقرب بيني وبين الاستاذ عوض ، حتى قال لي قائل (كذا) انه يحب الادب ويشغف به.... وقال لي قائل بعد ذلك (كذا) انه يحب اللغات وانه لا يحب منها الا خلاصتها العلمية والفنية والادبية ولا يعنيه أن يتكلمها انما يعنيه ان يفهمها وينفذ إلى لبها الخالص عندئذ « تذكرت جوته » فقد كان هذا الشاعر على المانيته مسرفا في الطموح الى مالا يعلم ، يحسن لغات اجنبية ويلم بلغات اخرى ويحاول ان ينفذ الى لباب هذه اللغات وآثارها الفنية والادبية ، لا تصرفه اللغات الجديدة عن اللغات القديمة ولا تلهيه لغات الغرب عن لغات الشرق....ولم تكن اللغات وآدابها لتلهي جوته عن العلم والجد في تحصيله والامعان فيه »

عاد صاحب الدكتور طه الذي ألف الهمس في أذنه ونقل احاديث الأدباء اليه وقال له مرة اخرى أن صديقنا عوض « يحب جوته ويقف عليه كثيرا من وقته ، وانه ترجم « فوست » او يترجمه عن اللغة الالمانية لاعن لغة أخرى » تنبه ذهن الدكتور وامتلأت أذناه من ناقل الاخبار — أخبار عوض محمد طبعا — التي كان يجهلها ولا يعرف عنها شيئا ولم يكن يدرك طرفا منها مدة عشرته له، وكانت طويلة بالطبع ،عندها قال وعندها فقط قال « هنالك عنيت بالتودد الى هذا الجغرافي الغريب ، وانتهزت كل ماأتيح لي من فرصة لأتحدث اليه فأطيل الحديث (كذا) ولم أزل به حتى قال لي بأنه يترجم « فاوست » وأنه مضى في هذه الترجمة الى امد بعيد ، وهنا اخذ الدكتور طه يتكهن عن الترجمة ويقدر أن ستكون صحيحة دقيقة متقنة ويزعم لصاحبه الدكتور عوض أن نفسه تلونت بلون جوته وأنه لبس نفس جوته وأنه صار يحس إحساس جوته ويرى الاشياء كما يراها جوته وان حياته العادية اصطبغت بصبغة حياة جوته ! !

فهذه التكهنات التي تكهن بها والتقديرات التي قدرها لصاحبه والنتائج التي استخلصها من حياة رجل وقف حياته على علم الجغرافيا واستطاع مع ذلك أن يعنى بالادب ويأخذ منه بحظ موفور ، أثارت عنده عاطفة الاكبار والاعجاب — التي لم يثرها

علم الطب عند الشاعر الدكتور ابراهيم ناجي ولا علم الهندسة عند الشاعر علي محمود طه — « وطلب اليه في شيء كثير من الاخلاص والمودة الصادقة أن يدع اليه تقديم ترجمته الى جمهور القراء من أهل العربيــة ، فقبل مبتسما وأحسبه كان راضيا وأحسب ان هذا الرضا لم يخل من الاغتباط (كذا)

هنا انتهى الفصل الاول من المقدمة وقد ارانا فيها الدكتور طه انه ما كان يعرف عن صاحبه عوض الا أنه هادىء النفس صافي الضمير، كريم الخلق وصاف للارض مقوم للبلدان ، وانه لما همس هامس من حواريه في اذنه بان صاحبه يحب الادب ويشغف به ويعكف عليه وانه يحب اللغات الغربية « ويستظهر النصوص العربية القديمة الغليظة » عرف عندها فقط ان صاحبه يشبه جوته الشاعر الالماني مشابهة تامة طبقية في كل شيء ، ثم لما عاد ذلك الحواري يقول للدكتور طه عن صديقه عوض انه يترجم «فاوست» لزمه الوحي وأخذ يتكهن مرتجلا بان الترجمة سوف تكون صحيحة وقدر لها الدقه لأن روح جوته تقمصت جسد عوض وان لو عاد جوته الى العالم مرة ثانية وسأل عن فاوست لقال لعوض ما كان قاله قبل مماته عن جيرار دى نرفال أنه لا يحب أن يقرأ فاوست في الالمانية وان الترجمة الفرنسوية قد حببت اليه النظر في فاوست مرة ثانيــة، فلا بد اذاً من الاكبار والاعجاب ولا محيص عن

الطلب إلى الاستاذ عوض أن يدع تقديم ترجمته الى جمهور القراء!
وهنا خليق بنا أن نسأل الدكتور طه عن نوع الحديث الذي كان يدور بينه وبين صاحبه الجغرافي ، ذلك الحديث الذي أوثق الصلة بين الدكتورين هل كان حديثًا جغرافيًا والدكتور طه يعترف بجهله لعلم تخطيط الارض ووصفها ، وتقويم البلدان ومساحاتها ، أم كان حديثًا أدبيًا والدكتور طه لم يفطن إلى أن صاحبه عوض يحب الأدب ويشغف به ويحب العلم والفن أيضًا ، وكيف ولماذا لم يستشعر بأن تمازجا بين روحي عوض وجوته وتجانسا في ميولها وتشابهًا في نفسيهما إلا حين همس الهامس في أذنه بأن في صاحبه من صفات الادب كيت وكيت فتنبه فجأة ، وهو الا لمعي الفطن ، إلى « أن هذا الكعك من ذاك العجين » وهنا يجدر بي أيضًا أن أسأل الدكتور طه هل ميزانه في نقد مؤلفات الأدباء قائم فقط على معايير ما يقوله حواريه له ؟ ؟

أما الفصل الثاني من المقدمة فقد وقفه الدكتور على تعريف مقام « الاستاذ » لا الاستاذية التي أخذ الناس يطلقونها اعتباطا على كل من هب ودب من طبقات الناس، بل أستاذية الاستاذ في الجامعة الذي لا بد له عند كتابة مقدمة لأي كتاب — خصوصًا ما كان كترجمة فاوست — أن يقرأ الترجمة أولا ثم مؤلفات جوتة كلها وما كتبه النقاد عنه عندما كان

طفلاً ، وشاباً ، وشاعراً ، وفيلسوفاً ، ولا بد له أيضاً من قراءة ما كتبه الكتاب عن أسرة جوته وعن رفاقه في صباه وعن حياته الغرامية وحياته العامة ، ويحتم عليه أيضاً قراءة ما كتبه النقاد الذين عنوا بمقطوعاته الغنائية وقصصه التمثيلية وبحوثه العلمية ، نعم لا بد للاستاذ في الجامعة المصرية أن يلم بكل ذلك وبضروب أخرى من الدراسات عن جوته العظيم الذي « فرضت عظمته على الانسانية العاقلة الحساسة أن تحبه وتسعى اليه وتجد في فهمه والوصول إلى دخيلة نفسه والظهور على عظمته وسر تفوقه ، وان الانسانية التي ما فرغت من درس شكسبير ولن تفرغ من دراسته سوف لن تفرغ من دراسة جوته ولن تقول فيه كلمتها الاخيرة » لذلك لا محيص للدكتور طه حسين عميد كلية الآداب في الجامعة المصرية من تلاوة كل هذه الكتب والدراسات « حتى لا يتورط في هذا الجهل المنكر الذي يتورط فيه من لا يقرأون ولا يتحرجون مع ذلك من الكتابة والاسراف في الكتابة عما يعلمون عن جوته وما لا يعلمون » لذلك أيضاً وأيضاً لا بد له من كل هذه المطالعات ولا محيص عن هذه الدراسات ليكتب مقدمة لترجمة كتاب !!! نعم لا بد له أيضاً من استمهال الاستاذ عوض الاسابيع والشهور « ثم يشاء الله في يوم من الايام أن يتم لصاحبي النصر

وأن يقدم ترجمته إلى المطبعة ، وأن تهيأ هذه الترجمة لتلقى إلى الناس ، وأن يستنجزني صاحبي ما وعدت في الشتاء فاذا أنا غريق في الفرزدق وجرير ثم يأتي الربيع فاذا أنا غريق في الاخطل وذي الرمة ثم في الصيف فاذا أنا غريق في أعمال أخرى .... وصاحبي ينتظر ، وأنا أعتذر ، وهو يلح في رفق وأنا أتملل في دعة »

وهكذا ينقضي فصل من السنة تلو فصل ، وينصرم الحول ويأتي الثاني والاستاذ طه « يختلس ساعات يقرأ فيها بعض ما كتب الناس عن جوته ! ! فأذا سألنا عن معنى هذه « الخنشصة » في الادعاء العريض الطويل الذي لا مبرر له البتة مادام الغرض معرفة ماذا كانت ترجمة الاستاذ عوض لقصة فاوست صحيحة أو غير صحيحة ، دقيقة متقنة أو غير دقيقة متقنة ، وعما اذا كان اتصل اتصالا حسنا بروح المؤلف أم لا ، هذا كل ما هو مفروضة معرفته أما سواه من الكلام عن جوته وحياته ومؤلفاته وشعره وقصصه وعما قاله النقاد فيه فلا صلة له مطلقا في موضوع المقدمة ، انما له دلالة واحدة على مرض العقد النفسية عند الدكتور طه التي لا ترتاح من نوباتها ولا تطمئن من غليانها الآكل الا بفرض سلطة « الاستاذية » على الناس فرضا ، وبسط سلطان القوة العكسية عند الضعيف على الادباء بسطا ، وتجريع الناس معرفة تستفيض من الدكتور صاحب الحالة الخاصة تجريعا ، وذلك ان لم يكن مستطاعا

في منبر الجامعة وفي حلبات الصحف والمجلات فلم يكن مستطاعا في المؤلفات الخاصة وفي كتابة مقدمات الكتب.

لست ارمي الى انتقاص الأستاذية عند الدكتورطه لانها غير منازع فيها ، ولا التقليل من قيمتها لانها محترمة في ذاتها ، ولا موازنتها بسواها عند فطاحل الغربيين فذلك بعيد عن غرضنا ، انما رميت الى اظهار ناحية الضعف المستحب عنده ، إذ لولا هذا الضعف البادي فيه لما لمحنا البوارق التي تستفيض بها نفسه بعض الاحايين ، ولا لمسنا اجتهاده في التحويم والتحليق والأحاطة بكل شيء ولا سمعنا ورأينا رعوده وبروقه ولا أعجبنا بعجاج غضبه وقتما تعرضت ناحية من نواحيه الخاصة للمساس ولا ضحكنا حينما اخذ يضحك هو من رجل حاول الاعتداء على مصلحة من مصالحه التي لاشأن للناس بها.

اما في الفصل الثالث من المقدمة فقد أتى الدكتور طه عجبا وذلك في انحرافه عن المترجم وانصرافه عنه واتجاهه صوب المترجم له واطلاق قلمه ولسانه في التحدث عن حياة جوته وعن تاريخ مولده وسنة موته وعدد الاعوام والايام التي عاشها وإحصاء الخليلات اللواتي عاشرهن والاسترسال في الكلام عن فوست وعن هذه القصة التي ترجمت الى اللغات الاوروبية كلها وقد فسرت وشرحت في أنحاء مختلفة وقد مثلت على

الملاعب وغنيت في دور السينما ولحنها كبار الموسيقيين في اوروبا الى آخر ماهنالك من التبسط والترسل في الكلام عن الامور التي لها علاقة بحياة جوته فكأن الكلام عن المؤلف جوته فرض لا مهرب منه وسنة واجبة وكأنه هو المطالب بهذا البيان والتوضيح وليس المترجم نفسههو المطالب به ، وكأن الضرورات تلزم المقدم ان يتكلم عن المترجم له ويهمل المترجم نفسه !!

كأني بالدكتور طه قد فطن الى تقصيره في حق صديقه الدكتور عوض وإجحاف فضله وانتقاص قدره ، أو قل اذا تشئت أنه عوتب على التقصير والاجحاف والانتقاص فراح (وقما كتب مقدمة الكتاب « هرمن ودوريته » الذي ترجمه الدكتور عوض لجوته) يستكمل ما كان بدأه في مقدمة فاوست ويرتق ما كان خرقه فيها ، فقد تكلم في هذه المرة عن الدكتور عوض المترجم كلاما طيبا لا أجد بداً من نشره برمته لأبرهن على أن الدكتور طه في حاجه ماسة الى من يقول له دائما إفعل كذا وكذا واكتب كيت وكيت ، والى من يقرر له الصفات والمزايا والملكات عند الادباء ويحدد له قيمها

نعم انه لفي حاجة ماسة الى ذلك لان ملكة التخيل مريضة عنده ، ولأن اللمحة الخاطفة والادراك اللامع هما عنده في حكم المريضة ولانه عاجز عن الخروج عن المألوف العادي الى ميادين

الغرابة والابتكار والتوليد، ولأن ميزته الوحيدة هي أن يصور لك وقائعه الخاصة تصويراً بارعاً بعيداً عن التعمل جامعا لا كثر عناصر البساطة والسهولة والانسجام . من هنا تلمح الفوارق الصارخة بين الاعمال الناقصة المبتورة التي يستوحيها من محيطه ومن اعوانه فيضطر الى العودة اليها لاتمامها حينما يوعز اليه بذلك، وبين الاعمال التي يستلهم نفسه فيها فأنها تأتي تامة او قريبة من التمام . قال الدكتور طه في صديقه الدكتور عوض مانصه « هل يستطيع الشرقيون ان يشكروا لهؤلاء الادباء الذين يترجمون لهم آيات الادب والفن والفلسفة فيتيحون لهم من النعمة ماأتيح للامم التي نبغ فيها عظماء الرجال وينسون أنفسهم ويمحون شخصياتهم ويقنعون بمكان المترجم الذي ليس هو بالقاريء المستريح ولا المترجم النابغة، ولكنه صلة بين الرجلين لا حظ له من راحة الاول ولا حظ له من مجد الثاني وانما هو خادم مخلص مؤثر أمين يرفع القاريء الى حيث يذوق جمال الفن وجلاله ويشق لآثار النابهين من الادباء والفلاسفة طرقا جديدة الى عقول الناس وقلوبهم ويتيح لهم سلطانه الخير على مختلف البيئات والاجيال »

كأني بالدكتور طه حسين استكثر الكلام الطيب على صديقه الدكتور عوض المترجم الامين وكأني به شعر بعقرب

الغيرة باسمه في الوريد فانطوى على عجل على نفسه وشرع يقول للقراء كلاما ، لا أقول الادعاء بعينه ولا الغرور المجسم ، انما أنقله بنصه وفصه وعجره وبجره ليقولوا بعدها ماشاءوا فيه ويصفوه بما هو خليق به قال :

« لقد كنت وما زلت أشعر وأنا أقدم هذا الشاعر الفيلسوف العظيم (جوته) الى أهل الشرق اني أستقبله في داري وأقدم له من ألوان التضييف والاكرام ماأقدر عليه وما هو أهل لأضعافه، وأي شرف أحسن في النفس وقعاً وأدعى الى الفخر والكبرياء من استقبال هذا الرجل العظيم وتقديمه إلى الشرقيين بل تقديم الشرقيين اليه ولا سيما بعد أن مضت الاعوام بشخصيته الفردية والوطنية وجعلته رجلا انسانياً عالميا فوق الفرد وفوق الامة الالمانية التي انجبته،وفوق العصر الذي عاش فيه بل فوق العصور جميعاءويزيد هذه العاطفةفي نفسي قوة ويهبا استئثاراً اني لم أكد أقدم جوته الى الشرقيين حتى أحبوه وأقبلوا عليه يقرأونه ويدرسونه ويتلمسون عنده غذاء العقل والعاطفة والشعور (كذا) فلم تكد تظهر آلام فرتر وتذيع في الناس حتى أساغوها واستعذبوها وطلبوا المزيد من آثار هذا الرجل العظيم فظهرت لهم قصة فاوست فاذا هم يجدون فيها مزاجاً قيما بديعاً من الادب الرائع والفن الرفيع والفلسفة العليا ، واذا هم يقرأون ويدرسون

ويستزيدون واذا صديقي عوض يلبي هذا الدعاء ويستجيب هذا النداء فيترجم لهم هـذه الآية التي أقدمها الى القراء اليوم وهي قصة « هرمن ودروتيه » !

حسب الدكتور طه فخراً وكبرياء أن يقدم جوته الى قراء العربية في الشرق ولـكن ، أنى له أن يدعي أن الشرقيين لم يكونوا ليعرفوا جوته الا بعد ما قدمه هو إليهم ؟ هل كانت طوائف الادباء في الشرق تجهل وجود جوته حتى جاء طه يكتشفه لهم ؟ لنفرض أن لم يتقدم أحد على الاستاذين احمد الزيات ومحمد عوض محمد في ترجمة آلام فرتر وفاوست وهرمن لجوته فهل هذا يعني أن مؤلفات جوته هي فاوست وفرتر وهرمن فقط وأن الترجمات لغير هاته القصص لا قيمة لها ولا وزن ، أو أن معرفة جوته لاتقوم إلا على التعرف على هذه القصص بعينها لان الذي عربها هو الزيات وعوض وأن الذي قدمهما الى القراء هو الدكتور طه حسين ؟ في المجلات التي تصـدر في مصر والشام وأميركا والاقطار العربية دروس قيمة وترجمات بارعة لـكثير من اعمـال جوته الشعرية وغيرها سبقت ترجمات عوض والزيات ، فهل تلك لاتكفي لتعريف قراء العربية الى جوته ، او أن عناصر التعريف لم تكن متوفرة فيها حتى بعث الله طه،طه حسين الى الشرق يعرف جوته الى قراء العربية في كتابة مقدمات لثلاثة كتب اوأكثر؟

حسب الدكتور طه فخراً وكبرياء ان يكتب مقدمة لترجمة فاوست وفرتر وهرمن ولكننا لا نقره ، وقد لا يجد رجلا واحدا يقره على أن جوته كان نكرة او مجهولا عند قراء العربية وانه لم ينقلب علما من أعلام الادب والفلسفة ويصبح معروفا عندهم الا بعد ما قدمه طه حسين اليهم ، ويسمح لي الدكتور طه ان أهمس في أذنه انه لا يوجد خمسة من مئة قارئ يقرأون مقدمات الكتب مهما كان كاتبها عظيما وأن الذين يقرأون المقدمات هم خاصة الخاصة من الادباء لا القراء ، وأنه إذا كان هناك فضل في انتشار فوست وفرتر وهرمن عند قراء العربية ممن لا يحسنون قراءة اللغات الغربية فانما هو فضل خاص بالمترجمين ووقف عليهما وحدهما . ولننظر الآن من هو الدكتور عوض محمد وما هي مكانته في الادب

لا حرج على القاريء اذا صور له خياله صورة وضاءة بارعة عن شخصية الدكتور محمد عوض محمد . الذي يجمع بين العلم والادب ، لان الصفات التي أسبغها الدكتور طه عليه والاطياف والظلال التي وجهها اليه تهيء الذهن الى تخيل احسن الصور وابهاها وأسمى الشخصيات واعظمها ، فلننظر الآن فيما قاله الدكتور في صاحبه هل هو محض ثناء ومديح أوجبتهما الاثرة التي تدفعها مظان التعظم الى توهم العظمة في كل عمل من أعمالها ،

أو ان الرجل عريق حقا في الادب وقد اكتشف الدكتور هذه العراقة فيه فأخذ يدلل عليها ويدعو الناس اليها ؟ ؟

لعل أوجب مايجب فعله إنصافا للرجل وتحقيقا لعناصر النزاهة في أحكام الدكتور طه ، هو أن نقتطف قطعة من قصة ألفها الدكتور محمد عوض — تأليفاً لا تعريبا — فهي وحدها تدلنا على اتجاهه الروحي ، وخياله الشعري وتبين لنا أنواع معادن أدبه ومعاييرها الصحيحة

قال الدكتور عوض في أقصوصته «الشريد» يصف بقعة في إفريقية الجنوبية « زنجيه هذه الادغال والاحراج ، يسكنها وحش زنجي، وطير زنجي ، واقوام من الزنج . . زنجية هذه الجبال الجرداء التي تبدو في الافق الشرقي ومن فوقها تطل على القوم كل صباح شمس زنجيه السحنة والملامح والتقاطيع » نعم شمس زنجية السحنة والملامح والتقاطيع هكذا يقول الدكتور عوض !

افهم النوع الرمزي في الشعر وأعرف الكناية والمجاز والتشبيه والجناس والتطريز والتوشية والترخيم والاستعارة الى نهاية ماهنالك من ضروب الحذلقه في أبواب الشعر لتسمية الأشياء بغير اسمائها ، وأعرف أن في بعضها حلاوة مستملحة مستساغة ، وفي بعضها الآخر ماهو غير مستملح ولا مستحب ولا مستساغ ، انما الشيء الذي لا أفهمه ، ولا أعرفه ، ولا قرأته في

كتاب لكاتب شرقي او غربي هو إطلال « شمس زنجية السحنة والملامح والتقاطيع صباح كل يوم على أقوام من الزنج !

أقسم اني رأيت طلوع الشمس في كافة نواحي القطر المصري وفي فصول السنة الاربعة ، ورأيت طلوعها وغروبها في ناحيات عدة من نواحي سورية وأوربا وتركيا وجزر البحر الابيض وسواحل البحر الاحمر ، ولم الحظ قط تغيراً في « سحنتها وملامحها وتقاطيعها » فهل لاحظت ايها القارىء ، اني كنت وفي اية بقعة من بقاع العالم نزلت شيئاً من هذا التبدل في ملامح الشمس ، أو تلك ظاهرة جديدة في الشمس لم يلحظها أحد سوى العالم الاديب الدكتور محمد عوض محمد ؟ أو براعة في الاستكشاف والفتح في الادب الحديث في تصوير الشمس صوراً تنطبق على الانواع والاجناس والالوان البشرية فيقال مثلا ، شمس آرية او سامية ، أو غالية ، أو يقال انها شمس صفراء ، او حمراء ، أو بيضاء او سمراء نسبة لشعوب الصين والاميركان والاوربيين وقطان سواحل البحر الابيض ؟ ؟

اللهم أشهد أن الادب لم يبلغ على أيدي الادباء المراتب التي أبلغها اليه الادباء الجغرافيون أمثال صاحبنا الدكتور عوض الذين توفروا على وصف البلدان والذي توصلوا بقوة عقلهم الرياضي وخيالهم الحسابي وحسهم الجيولوجي الى خلق وأبداع

وابراز صور للشمس فيها سحن وملامح وتقاطيع وابتسامات وايماءات القوم الذين تطلع عليهم صباح كل يوم

هذا هو الدكتور محمد عوض محمد ، كما تدل عليه هذه القطعة الادبية التي اقتطعها من فؤاده واعتصرها من ذهنه تبين لنا بوضوح معيار النزاهة والصدق في أحكام الدكتور طه حسين، وبراعته فائقة الحد في فهم الناس وفي وصفهم

قلت أن الدكتور طه استكثر المديح الذي أفاضه على صديقه الدكتور عوض وخشي أن يتجسم وقعه في نفس القاريء، فيساوي اعتباطاً ، في احترام الدكتورين وينزلهما منزلة واحدة من التكريم والتقدير ، أفزعه هذا الوهم الطاريء فعاد في التو الى نفسه يتكلم عنها ، والى قارئه يلقحه بمعلومات جديدة تزيل ماقد علق في ذهنه من كلام أفرط في قوله في صديقه مترجم هرمن ، وقد دلنا طه في عمله هذا على ظاهرة خلقية حديثة هي إحدى فواصل العقد النفسية التي كنت أتوهم أنها تجعل صاحبها دائم الاهتياج ، كثير الانفعال ، سريع التوثب والانقضاض ، وما كنت أظن أنها تكون لصاحبها مصدر غبطة وحبور ورضى وابتهاج ، وأنها تأرجح النفس بين النقيضين وتدفع بها من الطرف الادنى الى الطرف الاقصى دفعة واحدة ولا تتركها تستقر ، ولو مرة واحدة ، في وسط متوازن ، كما

هو الحال عند صاحبنا الدكتور . فلننظر كيف يكون بل كيف كان ذلك قال الدكتور طه

« أكتب هذا الفصل وفي نفسي عاطفتان قويتان تبعثان فيها السرور والغبطة وتملآنها بالرضى والابتهاج : احداهما عاطفة الاثرة التي يمقتها الناس عادة ويذمها فلاسفة الأخلاق دائما والتي لا أتحرج أن أقبلها الآن واستعذب الشعور بها لحظات قصاراً لأني انسان أجد ما يجده الناس من هذه العواطف التي تنشأ عن الضعف (الضعف) فتملأ النفس غروراً وتبعث فيها الحاجة الى الفخر ، ومالي لا أستعذب هذا الضعف ولا أستلذ الحاجة الى الفخر وليس من الأشياء اليسيرة ولا القليلة الخطر ان يختصك الله بهذه النعمة .. الخ »

فالدكتور لا يتحرج في الشعور بعاطفة الاثرة المنبعثة عن الضعف، وان ذمها فلاسفة الاخلاق ، لانها تولد السرور والغبطة وتملأ النفس بالرضى والابتهاج والغرور ، فهذا الأعتراف الوجداني يفسر لنا حالته الفسيولوجية من ناحية ويفسر من ناحية أخرى تأرجح نفسه بين النقيضين واندفاعها تارة إلى الطرف الأدنى وطورا إلى الطرف الاقصى ويدلنا على ان كل أديب تواتيه الاقدار المرضية أو تلقي به الظروف العمياء بين يدي الدكتور طه الناقد فانه يكون حتما واحدا من اثنين ، إما نابغة متقد الذهن ،

مشبوب الروح ، مرهف الحس ، لامع البصيرة، هادىء النفس ، رضي الخلق ، أصيلا في الفن كفوزي المعلوف ومحمد عوض واحمد الزيات وتوفيق الحكيم وغيرهم وأما أن يكون على نقيض تلك الصفات أمثال إيليا أبي ماضي وابراهيم ناجي وفؤاد صروف وابراهيم المصري والآنسة مي وغيرهم ، وإذا حاولنا التعرف إلى أدباء لا يكونون من طراز فوزي المعلوف واقرانه ، ولا من نسق ابراهيم ناجي وانداده فاننا نكون كمن يحاول تحقيق المحال أو يفتش على الظهر في الساعة الرابعة عشرة ! واذا بحثنا عن بواعث هـذا التناقض فاننا عبثا نبحث عنها في غير نفس الدكتور التي لا تعرف الاستقرار ولو لحظة واحدة في وسط متوازن، ولأن نفسه «التي تشعر بعاطفة الاثرة المنبعثة عن الضعف» الضعف الذي يولد عند من تكون حالتهم الفسيولوجية كحالته، الغبطة والسرور والرضى والابتهاج والغرور،ومن حقه ان لا يتحرج في هذا الاعتراف، بل من حقه ان يغتبط به ويفخر ويفتر ويتجاهى، اليس من دواعي الغبطة والفخار والغرور ان يدلف الى الدكتور طه رجل كالمؤرخ عيسى اسكندر المعلوف ،العضو في المجامع اللغوية في دمشق وبيروت والقاهرة، والاخصائي في علم آثار لبنان وانساب قطانه، يحمل في يده ديوان ولده فوزي الذي طبعته الجالية السورية في اميركا الجنوبية أجمل واحسن طباعة ،وفي عينيه دموع، وفي

obeikandi.com

صدره زفرات، وفي قلبه حرقة على فقد ولده الشاعر وهو في شرخ الشباب وميعة الصبا، أقول أليس من دواعي الفخر والغرور والغبطة والرضى ان يدلف مثل هذا الرجل، الذي لا بد ان يكون له شأن في البلاد الشامية، الى الدكتور طه يقدم له الديوان والدموع والزفرات والحرقة هدية يرجوه ويلح في الرجاء ليقبلها منه، أليس في ذلك الدلف والاستخذاء والزلفى، أليس في جلوسه بين يديه محتشما متقبضا العلاج المستحب لضعف الدكتور المستحب؟ لم لا تولد الاثرة المتولدة من الضعف فخرا وغرورا عند الضعيف وهو غير مكلف بدفع أجر عن هذا الباعث التوليدي الممثل بالهدية المغموسة بالدمع والزفرة سوى كلام قد يأخذ به البعض من الناس على علاته ويتبرم به البعض الآخر؟ اذن لا حرج على الدكتور من الاهابة بالناس، بل دعوة «الذين يعنون بالشعر العربي الحديث ان يدرسوا شاعرية هذا الفتى (فوزي المعلوف) درسا مفصلا دقيقا ليروا كيف نشأت وكيف تطورت وكيف انتهت بصاحبها الى هذا الخطر العظيم من الاجادة والاتقان»

ليس غرضنا معرفة ما ذا كان الدكتور طه صادقا في دعوته للشاعر فوزي المعلوف أو غير صادق، انما غرضنا أن نقول أن ناحية الضعف عنده تتأثر بالزلفى ومظاهر الاستكانة أكثر مما تتأثر بروح الاشياء وجواهرها، وأن استرضاء ناحية هذا الضعف هو

عنده المعيار الذي به يرجح كفة على كفة ويقلب قب الميزان الى هذه الناحية أو الى تلك ، ولو لم يكن ذلك حقيقة لا يلابسها ريب لما كنا نرى تأرجحاً وتذبذباً وتطرية ثقيلة الدفع حينما حاول الكلام عن الشاعر إيليا أبي ماضي، وأبو ماضي كما يعرفه الادباء واحد من ثلاثة شعراء هذا العصر يطوع عناصر الحياة لفنه الجميل فيجعله خالداً ببساطته وصدقه وموسيقاه ، وهو المبرز الوحيد في نوعه ، والموفور الكرامة لا يدلف الى النقاد متزلفاً ولا يستجدي المديح والتقريظ من أحد، عمدته في حياته قوته وفنه وكرامته، فلو أنه فرط بقسط زهيد من هذه الكرامة وقدم ديوانه « هدية للدكتور الجليل الاستاذ طه حسين عميد كلية الآداب في الجامعة المصرية والعبقري العظيم » لصح أن ينظر اليه كشاعر لا بأس من الاشارة الى أشعاره والدعوة إلى دراستها ولا ضير في أن يقول فيه بعض ما قاله في فوزي المعلوف الذي لقي ربه ولم يبق ما يخشى من سلطانه في دولة الادب التي يزعم الدكتور أنه ربها الأوحد وخالق نهضتها وموجد عصرها الزاهر ونشوئها الحي

لقد حاول الدكتور ان يقول كلمة في أبي ماضي،ولكن نفسه الغاضبة بدون سبب ، أو غير الراضية عن هذا الشاعر المتحرر ،لم تطاوعه على القول الحق فلما أخذ يتكلم عن ديوان «الجداول» ملبياً رغبة الذين رغبوا اليه الكلام فيه ، صار يتقلب تقلب

المستدفىء بالشمس يوليها جوانبه ويظلل بيديه عينيه اللتين لا تقويان على التطلع اليها ، يحاول أن يقول شيئاً ، ويتعمد أن لا يقول شيئا ، ان مجال القول في هذا الشاعر المبدع لأوسع مما يتوقعه الناقد ، ولكن مجالات الانحراف عن الحق عند غير النزيه أوسع ، وطرائق التهرب والالتواء أبرح ، يقول الدكتور :

« لست أدري أيرضى أصدقاؤنا اللبنانيون أم يغضبون إن رأيت أن أثر جبالهم الجميلة في الشاعر الذي أتحدث عنه اليوم ضعيف جدا ؟ فالذين كتبوا عنه ينبؤننا بأنه لبناني المولد ولكنه لم يبلغ الحادية عشرة حتى هبط إلى مصر فأقام فيها يدرس إلى التاسعة عشرة ثم ارتحل إلى أمريكا فأقام فيها إلى الآن ، وهؤلاء الذين كتبوا عنه يلاحظون أنه أصفى الشعراء والكتاب السوريين المهاجرين إلى أمريكا لغة ويخيل إليهم أن إقامته في مصر هي مصدر هذا الصفاء . . أما أنا فآسف لأني مضطر الى أن ألاحظ أن صفاء لغته هذا الذي أعجب ، [illegible] وزميله طه الخيري لايخلو من شيء كثير يفسده ويباعد بينه وبين ما ألفناه من صفاء اللغة ونقائها عند الكتاب والشعراء الذين ينشأون ويعيشون في مصر ولبنان وغيرهما من بلاد الشرق العربي ، ولست أزعم ان لغة الشاعر رديئة أو منكرة ، ولكنها تقارب الرداءة احيانا حتى توشك أن توغل فيها إيغالا ، وليكن مصدر ذلك ما يكون

ولكنه شيء واقع لا نستطيع الا ان نلاحظه ونسجله آسفين ، ذلك ان الشاعر مجيد حقاً خصب الذهن ، نافذ البصيرة ، ذكي القلب ، متقن الفهم لما يريد أن يقول ، موفق الى اجادة التصوير لما يحب أن يصور ، فكان خليقا ان تواتيه مع هذه الخلال لغة صافية عذبة تعينه على اظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال ليس الى الشك فيها سبيل » وأخذ يدلل على عدم صفاء لغة الشاعر ويبرهن على ضعفها عنده وعلى انه حاول اصلاح هذا الضعف فلم يستطع ، وعلى أنه لما استيأس من هذا الاصلاح « لم يجد بداً من أن يتخذ هذا الضعف مذهبا »

وقال « أن هناك بدعة يلج فيها كثير من الناس وهي ، ان الجمال الفني في الكلام نثرا أو شعرا يأتي من المعنى وحده دون أن يكون للفظ أثر فيه ، وهذا كلام ان استقام لأهل المنطق فلا يستقيم لأصحاب الادب والفن ، لأن صناعتهم بطبيعتها تريدهم على أن يتخذوا اللفظ نفسه مظهرا لهذا الجمال الذي يفتنون به ويحرصون عليه ، ومهما يكن حظ الشاعر من إجادة المعنى وتصحيحه وتحقيقه والبعد به عن الخطأ والارتفاع به عن الاحالة ، فهو ان يظفر باعجاب الناس بحظ قليل أو كثير الا اذا استطاع أن يجلو لهم هذا المعنى في لفظ ، ان لم يكن رائعا خلابا ، فلا أقل من أن يكون صحيحا مستقيما بريئا من الفساد »

اذكر أيها القارىء ان الذي قرأ ديوان الجداول للدكتور طه هو الشاعر علي محمود طه المهندس صاحب ديوان الملاح التائه ، واذكر ان جميع النقاد أجمعوا على أن هذا الشاعر يؤثر الاحتفاظ بجمال اللغة وبهائها وبهجتها وجزالتها على بقايا الخصائص الطبيعية في الشعر واذكر أيضاً أن الدكتور طه في حاجة ماسة الى من يدله على الاشخاص والشخصيات ، والى من يصور له الرجال والافكار والمشاهد ، والى من يصب النظريات والآراء في ذهنه صباً ، والى من يهيء له سبل الاتجاه ، واذكر أيضا انه قلما يستطيع الاستغناء او التحرر من الاغلال التي يقيده الهاسون بها ، والانفلات من الشباك التي احاطوا بها ذهنه ، فاذا انعتق من أسرهم ، ونجا

علي محمود طه

منهم وتطهر من نفوذهم ، فانه يعمد توا الى نفسه فينطوي عليها ،

يراجع ويحلل ويتحص ما قيل له ، وقد يعمد في بعض الاحايين الى تلاوة فصل من كتاب أو قصيدة من ديوان المؤلف، وعندها يبتعد عن الضلال ويتقرب من الصواب ، ويباعد ما بين هوى النفس ونزاهة الضمير فيقصي الاول ويدني الثانية ، اما اذا كانت تعصف به عاصفة نفسية ، اما اذا داهمه موعد صدور الجريدة وكان لامحيص في نشر « حديث الاربعاء » في عدد «الوادي» الخاص وكان لابد من تلبية آلة الطباعة فعندها تراه يلقي بالنزاهة والصواب والانصاف والتحقيق وبكافة مقومات الناقد الى جانب وتختلط عليه النوازع النفسية ، ويعجز عن أخذ زمامها ويخرج الأمر عن ارادته فيتصرف في النقد تصرف ملقي الكلام على عواهنه ، ولذلك تسمعه يقرر في ايليا ابي ماضي ذات الآراء والنظريات التي يدافع بها الشاعر علي محمود طه عن شعره القائم على جمال اللفظ وحده

يفطن الدكتور فجأة الى هذه الناحية من التصرف المتعسف ، ويستشعر قوة الايحاء يتلقاها عن الشاعر علي محمود طه عن غير عمد وقصد ، فيجفل ... فيهدأ برهة ... فيهاب الحساب ... فيعود الى الكاتب يملي عليه الكلام التالي :

« لست أذهب مذهب الذين يرون الجمال الشعري في اللفظ وحده ولا يحفلون بالمعنى لأنهم يتلمسون هذا الجمال في الموسيقى ،

ولأنهم يجدون الجمال في غناء الطير ، وحفيف الورق ، وهفيف النسيم وفي خرير الجدول وهدير البحر . ولا يجدون لهذه الاصوات كلها معنى ، لا أذهب هذا المذهب فقد يكون فيه كثير من الحق ، ولكن فيه كثيراً من الغلو أيضاً ، ولعل الخير أن نذهب مذهب أوساط الناس فنقول كما يقولون ، أن الكلام يجب أن يدل على شيء وإلا كان لغوا ، ويجب أن يكون صحيحاً مستقيما وإلا كان ثقيلا على الاذن نابياً عن المزاج » ألست تقرني على أن هذه الجملة مصوبة بكايتها إلى الشاعر علي محمود طه ؟

ثم نسمعه يقول « وقد يكون من العسير أن نتعلق بكثير من الخطأ على الشاعر إيليا أبي ماضي في معانيه التي قصد اليها في هذا الديوان فهو مصحح للمعاني ، لا يحيل أو لا يكاد يحيل ، ولا يتورط أو لا يكاد يتورط في هذه المعاني الفاسدة التي تلتوي على العقل وأن كنا قد نجد من ذلك شيئاً في الديوان .... وأنه على هذا كله مصحح لمعانيه محقق لها لا يكاد يفسدها أو يخطيء فيها ، وابتكاره في المعاني التي اشتمل عليها هذا الديوان قليل جداً لا يكاد يحس ، ولكن شخصيته قوية فهو يتناول المعاني والاغراض التي سبقه اليها الشعراء المتشائمون والمسرفون في الشك من القدماء والمحدثين فينفخ فيها من روحه القوي ويكاد يفرض شخصيته فرضاً »

ويقول في مكان آخر وشاعرنا مع ذلك صاحب حكمة وزهد

وحرص شديد جداً على المساواة يكاد تبلغ به الاشتراكية أو ما هو أبلغ من الاشتراكية في إلغاء الفروق بين الناس ، تستطيع أن تقرأ قصيدته « الطين » فسترى أنه بلغ من ذلك ما لم يبلغه كثير من الشعراء المحدثين في الشرق العربي ولكن قافيتها جافة .....

أرأيت ربكة تلابس ناقداً فتجعله يتلوى ويتقلب ، يبتسم ويعبس ، يبسط ويقبض ، يعطي ويأخذ ، يهب وينتزع ، يتقدم وينكص ، يهدم ويحجم ، يصدق ..... ينزلق فيقول الحق فيندم فيعود إلى النقيض ؟

أرأيت التعسف والتجني والتجرم والتخليط بأجلى مظاهرها وأوضح معانيها ؟ ألم تر ذلك في كلام الدكتور وقد أراد أن يقول شيئاً في شاعر فحل فالتوى عليه القصد ولم تستقم له الغاية ؟

أردت من اقتباس هذا الكلام الكثير، والكثير جداً ، أن أبرهن على ان لمحات الحقائق التي قالها تضيع في ظلمات تجنيه، وان البراعة في مزج المتناقضات ، وعدم الثبات على الحق ، والصمود للباطل ، تبرهن على الاضطراب وعدم الحزم في الرأي ، وتدل أيضاً على أن صاحبها خواض شواطيء رقراقة فقط

تعمد الدكتور مصراً متجاهداً على تجريح شعر أبي ماضي فانقلب قصده إلى ضده إذ فقال:

« إذا أردت العبث الذي لا حد له بالموسيقى الشعرية

فاقرأ قصيدة « المجنون » فسترى أنها جنون كلها » اه

أكاد أصيح صيحة الابتهاج لهذا الاعتراف الذي ينقض قرارات وآراء ونظريات الدكتور التي قالها في أبي ماضي من أسسها ، وأكاد آخذ الدكتور بتلابيبه قائلا له صائحاً في وجهه هل من تفوق أسمى من القدرة على تصوير الجنون بقصيدة هي جنون كلها ؟!..

قال أحد ناقدي أعمال شكسبير « أنه كان يكتب عن الملوك كملك وعن الشحاذين والمجانين كما لو كان شحاذاً أو مجنوناً » ومعنى ذلك أنه كان يجيد لبس « الشخصية » التي كان يرسمها أو يمثلها الاجادة كلها ، ويقول النقاد للمتقن تمثيل دور من الادوار التمثيلية أنه تمكن من تقليد الشخصية واستطاع إبرازها كما هي ، ويقال مثل ذلك للروائي الفنان وللمترجم الامين ، فلماذا نرى البراعة في تمثيل الممثل ورواية الراوي وترجمة المترجم ونقدرها حق قدرها ولا نرى هذه البراعة ولا نقدرها في الشاعر الذي استطاع بقوة بيانه وسمو خياله أن يروي ويمثل حياة المجنون بقصيدة حافلة بكافة عناصر الجنون من وزن ولفظ وموسيقى لا تستقيم الا لمن برع في رسم حالة الجنون ولا نعترف لناظمها بالبراعة والتفوق ؟؟

***

يحار الدكتور طه في شاعرية الشاعر الذي « قد » « يكون عمد الى ذلك عمداً ليحكي جنون المجانين » كما احتار وتحير في فهم رواية « نحو النور » لواضعها ابراهيم المصري، لقد حيرته هذه الرواية لانها قريبة الشبه من قصيدة « المجنون » التي التبس عليه فهما، لأن وقائعها تدور حول وصف « مرحلة من حياة عبقري » وبين العبقرية والجنون برزخ يحير الدكتور أية حيرة،« لقد حيرتني قصة الاستاذ ابراهيم المصري نحو النور حين قرأتها، وما زالت تحيرني الى الآن، فأنا معجب بهذا الجهد الثقيل الطويل الذي بذله الاستاذ في تصورهذه القصة وتصويرها، ولكني أعترف (الكلام للدكتور طه) بأني لم أفهم هذا الجهد ولم أنته الى غايته التي قصد اليها الكاتب الاديب، هو يحدثنا في عنوان قصته بأنها مرحلة من حياة عبقري، ولكنه لا يثبت لنا في وضوح ان بطله عبقري حقا، وانما يحدثنا بأنه رجل ممتاز مجدد شجاع على التجديد، مدفوع اليه دفعا، مصر عليه إصرارا قد آمن به قوم قليلون، فلم يكادوا يخلصون له، وكفرت به كثرة الناس، ولكن عبقريته على ذلك غامضة غير بينة المدى، ولا واضحة الحدود، فهو مجدد ولكن في ماذا؟ في العلم؟ في الادب في الفن؟ في السياسة؟ في الاجتماع؟ في كل هذا او في غير شيء من هذا كله؟ يحدثنا الاستاذ ابراهيم المصري عن مقالات

يكتبها هذا العبقري ولكنه لا يكاد يحدثنا عن موضوع هذه المقالات ، بل هو ينطق لنا هذا العبقري بكلام كثير ولكنه مختلط أشد الاختلاط ، فيه آراء قد أرسلت ارسالا ، واحكام قد اطلقت اطلاقا ، وقضايا هي أشبه باحاديث المحمومين ، وقد لا يكون هذا غريبا فالعبقرية طور من أطوار الحمى أو فن من فنون الجنون ولكنها حمى نافعة وجنون مفيد . »

للدكتور طه أن يحار من وصف المرحلة الشاقة من حياة العبقري وله أن يلاحظ بنظره الثاقب ، وحسه المرهف « حديث المحموم ، والكلام المختلط ، والاحكام المرسلة » وله أيضاً أن يلمس فيها الغرابة والشذوذ وتنوع الأطوار والجنون أيضاً !! من حقه وهو الرجل الموهوب الضارب بكل سهم ، الخائض كل فن ، أن تحيره حياة العبقري ، لان العبقرية وان كانت طوراً من أطوار الحمى ، أو فناً من فنون الجنون ، ولكنها حمى نافعة وجنون مفيد أنما الذي ننكره عليه ، لا الحيرة التي تلابسه في حياة العبقري التي يعرف بوهيميتها وبداوات صاحبها ، بل ننكر عليه التذبذب والتأرجح بين العدل والظلم ، وتعمد التمويه والتعمية ، وهو العارف أن العبقرية غرابة وشذوذ وخروج على المألوف بل هي الجنون المقدس ، ويعرف أيضا أن في أحاديث العباقرة حمى تتصل حرارتها بالسامعين النابهين وانهم يرسلون كلامهم ارسالا ويطلقون الآراء

اطلاقا فتصيب كبد الحقيقة غالبا ولا تنحرف عن الصواب الا نادرا

نعم يعرف ذلك ، انما يتعمد الحيرة تعمد المصرّ ليجرّح مواهبهم التي ليس له منها بعضها وليعيب عليهم تصرفاتهم التي يتعملها فيستحيل عليه تقليدها ، اذن ليس ثمة من غضاضة ولا حرج عليه أن ينكر على روائي وصف « مرحلة من حياة عبقري » وصفا لا أقول فيه ماقيل في شكسبير أنه كان يكتب عن الملوك كملك وعن الشحاذين والمجانين كما لو كان شحاذاً أو مجنونا انما أقول فيه ماقاله الدكتور نفسه في كاتب رواية « نحو النور » وهو يعيب عليه عمله الفني كما عاب على الشاعر إيليا ابي ماضي قصيدته « المجنون » وهي من الاعمال الفنية الرائعة حيث قال « انه لم يثبت لنا في وضوح ان بطله عبقري حقاً وإنما يحدثنا بأنه رجل ممتاز مجدد شجاع على التجديد ، وأنه متهوس أو كالمتهوس يخالف المألوف » فهل الاعتراف بأن بطل الرواية رجل ممتاز مجدد شجاع على التجديد لايدنيه من مراتب العبقرية ؟ وهل من يخالف المألوف وهو متهوس أو كالمتهوس ويأتي اعمالا ممتازة في جدتها الا يكون على الاقل من العباقرة ؟

نعم أن هذا الاقرار صريح من الدكتور لولا الذبذبة والتأرجح اللذين تعمدهما لينكر عبقرية بطل الرواية ، وان هذا الانكار المفتعل لهو الاثبات بعينه والتوكيد الذي لاشك فيه

حقاً ان الدكتور ظريف ،وأني معجب بظرفه لأنه تظرف ، ظريف في وقفه « حديث الاربعاء » على قصتي « شهر زاد » لتوفيق الحكيم « ونحو النور » لابراهيم المصري ، ظريف في جمعه في فصل واحد بين كاتبين ، زحف الاول ودب حتى توصل الى لثم أهداب طيلسان الناقد الدكتور طه فأخذ بيده وضواه تحت لوائه ، واحتفظ الثاني بأبائه الادبي ولكنه ما كاد يلتقي به ويتحدث اليه حتى افترق عنه على خلاف ، وكأن الجفاء كان موقوفاً على اللقاء الأول ، فاذا أردت معرفة أسباب النفور من الاول وقد أوجب على نفسه النقمة واللعنة ، ودواعي الرضى عن الثاني ، وقد وجبت عليه الرحمة ، فسل « مركب النقص» عند الدكتور وقد أثاره المصرى بحديثه الاجش معه ، بعكس الحكيم الذي عرف بمراوغته كيف يغذي عقدة نفس الدكتور بالطمأنينة وجعلها تغتبط بالراحة من جراء تزلفه وتملقه

الدوافع الاساسية إذن هي شخصيتا ابراهيم المصري وتوفيق الحكيم وتصرفهما تصرفاً استوجب الغضب ينصب على رأس الاول والرحمة تشمل الثاني بشملة من التكبير والتعظيم ، وأنت ترى أن العلة ليست في أشخاص رواية « نحو النور » التي لم يعرض لها الدكتور بكلمة واحدة من التحليل ، ولا في شخص البطل الذي نفى عنه صفة العبقرية نفياً تعسفياً ، إنما العلة

الحقيقية هي في نفس الدكتور التي لا تطمئن ولا تخمد لها ثورة الا بأمرين اثنين،رؤية صرعى الاقلام مجندلين،أو الشعور بقوة بطاشة تأخذ النفس الضعيفة المستقوية أخذ جبار عنيف

يفتعل الدكتور طه النصح والارشاد افتعالا ، ويتعمل هداية الكتاب الذين يتهجس من نبوغهم خطراً على سمعته الادبية تعملا،وبوده لو يطمس اية بارقة تبرق في ذهن كاتب جديد حتى لايحوّل لمعانها انظار الناس عنه، ولذلك تراه يسرف في امتداح ما لا خوف منه عليه، ويبالغ في الافتئات والتجني والامعان في طعن من يتوهم مزاحمته ، اسمعه الآن ينصح الاستاذين توفيق الحكيم وابراهيم المصري ، قال مخاطباً الاول :

«أرجو أن لا يغتر توفيق بهذا الثناء الذي أهديه اليه صادقا مخلصاً ! وأود لو دفعه هذا الثناء الى العناية بفنه والتكميل لما ينقصه من الادوات ، فهو في

توفيق الحكيم

obeikandl.com

حاجة إلى أن يكثر من قراءة الفلسفة ليقول عن علم ويفكر على هدى ، وهو في حاجة إلى ان يعني باللغة ويتقنها ليستقيم له التعبير عما يعرض له من الخواطر والآراء »

وخاطب الثاني قائلا « ولأدع كل هذا لأقف مع الاستاذ ابراهيم المصري وقفة كنت أود لو استطعت أن أتجنبها فهل يعلم الاستاذ أني تجاوزت له في القصة عما يألفه المحدثون من بعض التهاون في اللغة والنحو والمزاح مع سيبويه والخليل ، ولكني أحصيت عليه بعد هذا التجاوز نيفا وستين غلطة ليس الى الصبر عليها من سبيل، أكثرها يمس النحو، والنحو الذي لا يجوز الخطأ فيه ... فالاستاذ ابراهيم المصري كاتب معروف يقرأه الناس ويحبونه وقد يتأثره الشباب ويجدون في تقليده ، فأي شر وأي نكر حين يقلده الشباب في هذا الخطأ الذي لا ينبغي أن يقبل من صغار التلاميذ »

أرأيت كيف يتهاود في الاشارة الى ضعف لغة الحكيم ويدعوه برفق الى العناية باللغة واتقانها ليستقيم له التعبير عما يعرض له من الخواطر والآراء وكيف يخاشن المصري في نسبة التهاون اليه في اللغة والنحو والمزاح مع سيبويه والخليل ؟ نعرف ضعفاً متقاربا في لغة الاديبين المصري والحكيم ويمكننا أن نحصي في الطبعة الاولى لقصة « أهل الكهف » من الاغلاط

أضعاف ما أحصاه الدكتور طه على المصري، فلم التهاود مع الاول والتخاشن مع الثاني وكلا الكاتبين يستأهل اللوم والتأنيب ؟ عرض الدكتور لدرس قصتي أهل الكهف وشهر زاد وهو يعلم جيداً أن لجنة التأليف والترجمة والنشر تناولتهما بالاصلاح والتنقيح وضبط الالفاظ والجمل فلم يتجاهل هذه الحقيقة، بل لم سكت عن دراسة قصة « عودة الروح » ومؤلفها الفاضل هو هو بعينه مؤلف القصتين الاوليين ؟ الأن حملات النقاد على أسلوبها السوقي، وسخف مرماها قد اضطرت مؤلفها إلى سحبها من المكاتب وأيدي الباعة، أم لوفرة ماوجد فيها من أغلاط صرفية ونحوية لاينبغي أن يقبل مثلها من صغار التلاميذ، او لأنها دلت النقاد على انها تكاد تكون مكتوبة بغير القلم الذي كتب أهل الكهف وشهر زاد ؟

الدكتور ظريف في تمييز صاحبه الحكيم، ومتظرف في سحق صديقه المصري إلا أنه غير صادق في نصح الاثنين، وهو ظريف ومتظرف معاً في تلقف الاخطاء النحوية التي يحرص على تلقفها حرصه الاشعبي على سمعته، وينسى لاجلها جميع معاني الجمال وصور الفن، وروعة الفكر فيتغافل عنها جميعاً « ليفتش » غلطة في الصرف والنحو، فأبراهيم ناجي « شاعر في حاجة الى أن يعنى بلغته » واحمد الصاوي محمد الذي قدم ديوان « ما وراء الغمام »

الى القراء « فان في مقدمته جملة قد اختلط أمر النحو فيها اختلاطا غريباً » والاستاذ فكري أباظه في كتابه الضاحك الباكي « أغلاط ما أحسب أنه قصد اليها وما أظن ان الفكاهة قد اقتضتها وانما هو هذا الخطأ الشائع الذي يحسن بالادباء أن يتجنبوه » وأن الشاعر علي محمود طه « شاعر مجيد حقا ولكنه مازال مبتديء (كذا) وهو شاعر مجيد حقاً ولكنه في حاجة الى العناية باللغة وأصولها وتعرف أسرارها ودقائقها فلا ينبغي للشعراء الذين يستحقون هذا الاسم أن يكون علمهم باللغة يسيراً محدوداً » واما محمود أبو الوفا « فالاغلاط النحوية والصرفية ، والاغلاط التي تتصل بالوزن واقامة النظم فاكثر من أن تحصى في ديوانه »

والدكتور طه يربأ باللغة أن تنحط على يد هؤلاء الادباء الناشئين وهو يهيب مستشهدا ربه على أنه صادق في نصحه مخلص في اهابته قائلا « اللهم أشهد عليّ اني أنبه كتابنا وشعراءنا المحدثين أو الذين يسمون انفسهم محدثين الى أنهم يعرضون اللغة العربية الى خطر لم تتعرض له منذ بدأ هذا العصر الحديث ، اللهم اشهد عليّ اني ادعوهم مخلصاً الى أن يتخذوا لهم معلمين يقومون ألسنتهم ويثقفون أقلامهم ويعصمونهم من مثل هذا الخطأ الذي لايليق »

خمدت الآن نار الدكتور وسكن ثائره وارتوى غليله من

الادباء والشعراء المحدثين ، وقد نالوا جزاء اهمالهم أصول اللغة وقواعدها ، ولم يعف حتى عن الاستاذ فؤاد صروف ولا عن الآنسة مي ولا عن الناشر المجتهد أميل زيدان الذي جمع للكتاب (أحسن ما كتبوا)

اغتبطت عقدة نفسه برؤية الادباء صرعى قلمه، هذا مجندل مطروح ، وذاك ينشج أو يبكي، وذلك واجم مبهوت، لقد سر وفرح بهذا الذي اراد ان يتكلم فازور ، أو الذي حاول ان يجابهه بقول الحق فتعلثم او ارتج عليه الكلام ، لقد ضحك وسع شدقيه من هذا الذي طلق الادب، او هجر الشعر او سكت سكوت سكان المغاور والكهوف

لم لا تسر نفسه وتغتبط ، ولم لا يفتر ويفاخر ، لم لا يستعذب ضعفه الفسيولوجي وهو يرى الاصحاء الابرياء يطأطئون الهامات ويسجدون له ، لم لا يشمخ بأنفه كبرياء وقد أخرس الالسنة كلها وحطم أقلام الشبان إلا لسان وقلم الدكتور زكي مبارك

ألم يبلغك حديث زكي مبارك ؟ ألم تبلغك أخبار دغدغته وهدهدته أياه وقوله له « اكتب هذا وأنا اعلم ان ستزجر فان مثلك لا يطغى الا حين يأمن فاذا خاف خوفناه » فانزجر وسكت

في مصر فئتان من الادباء فئة قوية يخشاها الدكتور ويتحاشى بأسها بالزلفى وبالاشادة بمحامدها حتى تسكت عن أعماله

الادبية، وفئة مستضعفة مجتهدة ، إلا أنها مبعثرة الجهد، لا تجمعها غاية ، ولا تؤلف بينها وحدة أو تجانس ، ولا يربطها غرض !! ظفر الدكتور بالبعض من أفرادها فكان يبطش بهم بطش الضعيف المستقوي، وهو يعلم في سره أنه ظلمهم، وافتات عليهم ، وتعسف في تقدير شخصياتهم ووزن أعمالهم .

كنت أود لو أقول أن نزعة انسانية أعادت الدكتور إلى الصواب ، وحتمت عليه الاعتراف للادباء المحدثين بما لهم من جهد أدبي وشخصية أدبية ولكنه لم يفعل ، إنما أرغم على ذلك إرغاماً ، اقول أرغم إرغاماً وقد نسيت ان أقول انه انساق إلى الاعتراف بفضل جهود الادباء المحدثين انسياقاً . وان الذي أرغمه أو ساقه أو أخذ بيده اليه هو أديب عصامي متواضع يدعى «عبد المعطى المسيري» يشغل عملا بسيطاً في مقهى بدمنهور ، هذا العصامي الذي يحيا بأدبه لوحده هو الذي أرغم عميد كلية الآداب على الاعتراف «بأنه مؤمن بأن ماينتجه الشباب اليوم خير مما كنا ننتجه في أول القرن،وأن أدباءنا رجال يستحقون النقد »

يجدر بي قبل اختتام هذا الفصل الذي أقرر فيه أن أنانيـة الدكتور طه بزت التعاليم المكيفالية كلها ، وبرزت على جشع طائفة معروفة من السياسيين الوصوليين نكبت مصر بهم بضع أعوام . وأن مركب النقص فيه يدفعه إلى الجوم والتجرم والتجني

على الادباء المحدثين كما يدفع به إلى الانقباض من الادباء الاقوياء والانكماش ممن يجابهونه بالقول الحق ، وأن عقدة نفسه تسر وتغتبط باستشعار الناس يدلفون اليه وهو الضعيف ، وينطرحون على أقدامه وهم الاقوياء الاصحاء! وخليق بي أيضاً قبل ان أقتبس من كلامه مبرراً إلى كل ما ذهبت اليه من نقد أعماله ، وتحليل نفسيته والتبسط في الكلام عنه ، أن لا أقول له ما قاله الدكتور زكي مبارك في حفل من أساتذة الجامعة وقد احتفلوا بعودة الدكتور طه اليها : كنا أصدقاء ولم يجد ما يجرح هذه الصداقة الا مقالي الذي كتبته عنه ، والمقال اعترف بان فيه شيئا من الشطط ولكني لا أعتذر عنه لانه من بعض ما علمني . » وهو القائل « أن مقياس ما ينبغي للشباب من الاستعداد الحسن، والانتاج القيم ، هو ثباتهم لهذا النقد ، وصبرهم عليه . وانتفاعهم به » وهو القائل « لا تظن ان عمل الناقد يجب أن يكون البناء دائما ، فقد يكون من الخير أن تهدم بعض الابنية التي تحجب الضوء والهواء عن أبنية أخرى هي أحق بالبقاء » وهو القائل أيضاً « ليس على الادب بأس من النقد مهما يقس ويشتد ، وإنما البأس كل البأس على الادب من النقد إذا هان ولان وأصبح تقريظا وثناء وإثارة للغرور ، وتشجيعاً للدخلاء ، والادب الذي لا يثبت للنقد العنيف ، لا يستحق ان يكون أدبا ولا يستحق

ان يعني به احد» اه

أليس في هذا الكلام ما يبرر ما قد يتوهمه البعض تحاملا مني عليه؟ أما اذا أراد البعض ان يجتهد في تخريج كلامي عن غاية النقد الادبي فحسبي أن ألفت الانظار الى قول الدكتور طه التالي، لاني متأثر حقاً به وسأبقى متأثراً به، وأتمنى لو يبقى الناس جميعاً متأثرين لأن التأثر هو الحافز الوحيد الى بلوغ عظمة النفس، ومجد الحياة، واني وان كنت أكبر الدكتور طه حسين، وأجل قدره فانما اجله واقدره لقوله هذا « ان الامر الذي احب ان يلتفت اليه الكاتب الاديب، وغيره من المتفائلين، هو ان الخطر حقاً ان نرضى عن انفسنا، وان نطمئن إلى ما بلغنا من الرقي، وما زلت اقول، ان الاديب الذي يستحق هذا الاسم، والرجل الذي يستمتع بحظ من الحياة، خليقاً أن لا يرضيا، ولا يطمئنا، فان الرضى والاطمئنان وسيلة الكسل وسبيل الى الخمود، ومطية إلى الغرور والعجب، وويل لجيل تقوم حياته على الكسل والخمود وعلى الغرور والعجب، ما دمنا نبتغي المثل الاعلى »

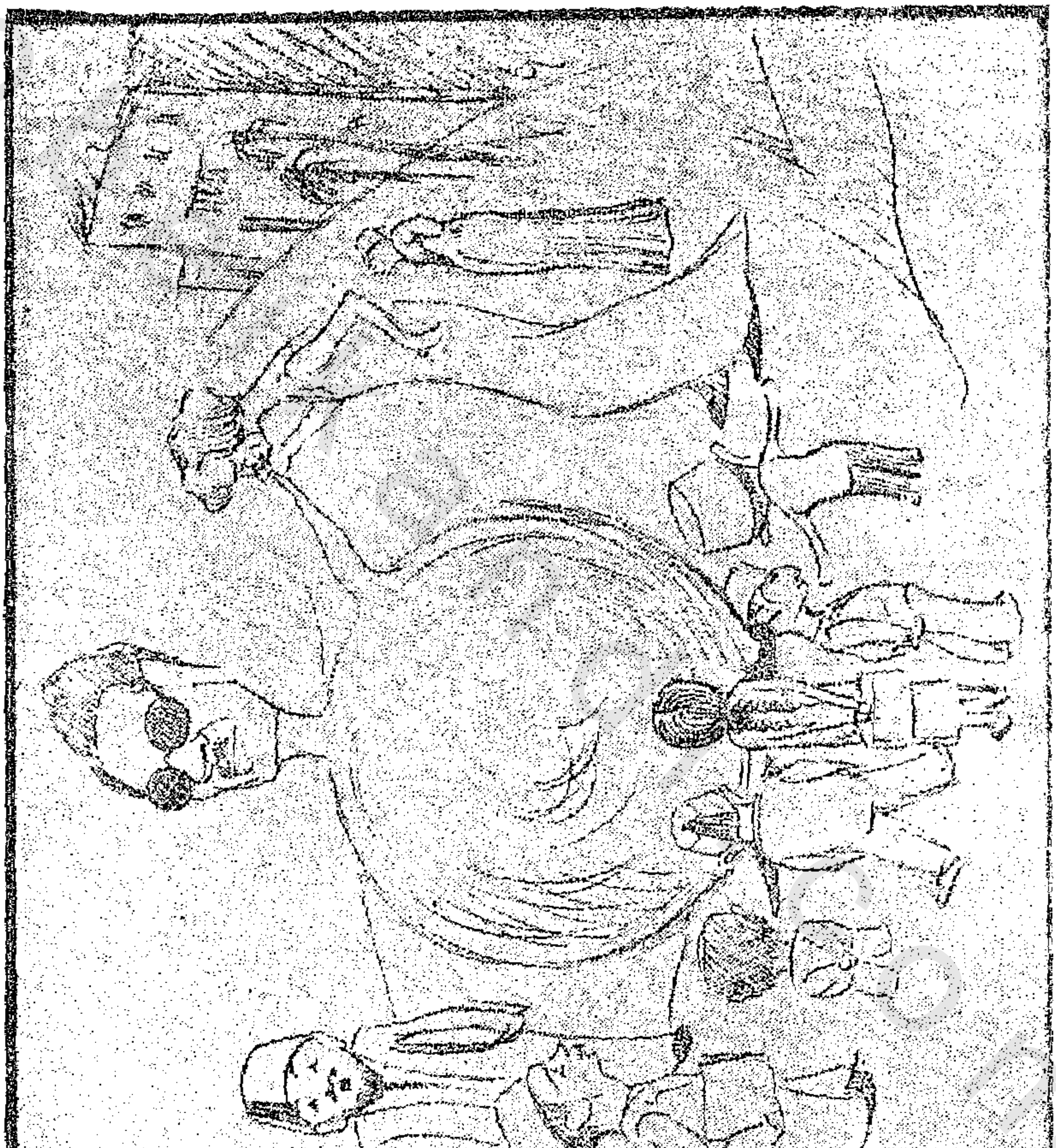

obeikandl.com

فهرست

صفحة ، إهداء الكتاب

٧ المقدمة

١٢ مغالاة الأدباء في كتابة مقدمات الكتب

١٥ الدكتور ابراهيم ناجي

٢٤ ابراهيم المصري

٣٠ حسن محمود — طاهر لاشين

٣٧ مختار الوكيل — خيال العرب

٤٤ احمد الصاوي محمد

٥١ احمد زكي أبو شادي — صالح جودت

٥٦ ~~فوزي [illegible]~~ محمود أبو الوفا ، حسن كامل الصيرفي

٦٣ عبد الله عفيفي ، محمد مصطفى الماحي

٦٨ لغة أدباء الشباب

٧٥ من هو الأديب

٨١ أدباء شباب وأدباء شيوخ : الآنسة مي ، سلامه موسى

٩١ الصحافة والأدب

٩٤ فكري أباظه ، توفيق حبيب

٩٩ أنطون الجميل ، احمد الصاوى محمد

١١٣ طابع أدباء الشيوخ

محمد حسين هيكل ، عبد الله عنان ، صحفي عجوز

١٢٣ الدكتور طه حسين ، الدكتور احمد فريد رفاعي

obeikandl.com

١٢٩ الدكتور طه حسين | الدكتور محمد عوض محمد
١٤٧ | ايليا ابوماضي ، فوزي المعلوف
١٥٢ | علي محمود طه
١٥٧ | ابراهيم المصري
١٦١ | توفيق الحكيم
١٦٣ | الأدباء المحدثون
١٦٩ صورة رمزية

الجزء الثاني

من

أدباء معاصرون

دراسات مستفيضة لطائفة كبرى من أدباء العصر نذكر منهم الأساتذة عباس محمود العقاد ، خليل مطران ، ابراهيم عبدالقادر المازني ، علي عبد الرازق ، زكي مبارك ، عبد العزيز البشري ، مصطفى عبد الرازق ، احمد حسن الزيات ، محمد أمين . مصطفى صادق الرافعي، فؤاد صروف ، أمين الريحاني ، مخائيل نعيمة ، سليم رشيد الخوري ، علي ادهم ، عبد الرحمن صدقي ، شفيق جبري، مصطفى الشهابي، محمود تيمور ، بشاره الخوري، أمين نخله، الياس أبوشبكه ، عارف الأرناووط ، شكيب ارسلان وغيرهم .

وسيصدر في أوائل شهر دسمبر القادم ؟